بانهُ ما من منطقة من مناطق البحر الاحمر المصرية سيكون لها شأن يذكر من حيث انتاج البترول الخ الخ»

هذا ما كان يقال في سنة ١٨٧٧ وتلك هي النتيجة الباهرة التي وصلنا اليها في سنة ١٩٢٢ ومن يدري فقد يأتي زمن يكفي بترول مصر فيهِ حاجتها مهما بلغت وتنتشر في الاسواق ستأتي البقية

عند قدمي ابي الهول (١)

الافق واسع واسع والليل عميق عميق، وانوار المساكن واضواء الشهب في احشاء الدجى جراح وحروق، واصوات المدينة تحدّث عن اوصاب المدينة جاهلة ما عداها، لذلك جئت انشد الاختلاء والسكينة وراء تلال فصلت بين عمران البشر الضاج المتيّد وعمرانك المستقلّ في حضن السكوت غير المتناهي

تتتالى على البسيطة شعوب ودول تأتي بالاديان والشرائع واللغات والعادات، وتتبارى هازئة في محق عمل الاجيال زلازل وبراكين واعاصير وصواعق واوبئة وثورات وزعازع وطوفانات — وانت هنا رابض امام اهرام انتصبت في وجه الفناء تنقض احكام الفناء. والهيا كل تلقي بين يديك حديث الدهر بالفاظ الحجر والصوان وتعزّزهُ بصور الارباب والملوك والكهاة. وكأن ما نزل بها من العاديات بعض تلك الصور المنيلة خطابها بلاغتهُ وروعتهُ

ها هنا تربض فريداً على وثير الرمال في مملكتك الفيحاء مملكة الكتمان والابهام والجلال، وعظمة القياصرة حديثة النعمة دميمة حيال عظمتك المجردة الرفيعة. والانسان المتطاول الشغوف بهتك الاستار يدخل ايوان وحدتك السنيّ ولكنك في غيبوبتك غير منظور لهذه الاشباح الفانية، وغير ملموس لهذه الايدي الدبابية المتنقلة على غالبك ومنكبيك مزاحاً واستقصاء

غير ان الانسان ليس بالمازح المستقصي فحسبُ، بل هو خصوصاً اللاعب المتألّم. يتناولهُ من الكون قهراً دوّار الفواجع والنوائب فيدرك ان الثبات العام منسوج من الوجل والاضطراب، وان البقاء الظاهر مصنوع من الغير

(١) نشرت اولاً في العدد الممتاز من جريدة الشاطر التي تصدر في اميركا

والتحول. يدرك مأساة الكفاح بين الحرية والقدر. يدرك ان عجايات القوى تضيع جزافاً في شلال الدواري والانسان الجارف الاطمة والمحاربين والشارعين والتديسين والانبياء والقتلة والقتلى سواسية. يرى التعاسة على طريق العروش والصوالجة والتيجان تختلط بقيود المجرمين. يرى الاعراس والجنازات والمواليد والوفيات يتخللها العور والبطر، والمرض والعافية، والخيانة والامانة، والدعوى والتطير، والضلال والهدى. وازاء ما يفطره ويعذبه سواءٌ يظل الكون على ما هو، والخلائق والاشياء تتوثب فيه وتتولد كالمياه الرهوة الرجراجة وكل ما خال منها وشيكاً كان نهاية تعقبها بداية، وانقاضاً تستوي عليها الاسس

واذ يزفر طالباً للحوادث تفسيراً يقال له « هذه هي الحياة ! » « ما هذا الا الحياة » « لا تكون الحياة الا كذا » نعم، يا ابا الاهوال الساهي، ازاء الطيبة والحرمان، والوفاء والغدر، والبياض والسواد، والفخار والمذلة، والغلبة والاندحار، ازاء كل مسرة وكل توجع التفسيرُ واحدٌ لا يتغير! انما نفسر الحياة بالحياة، ونداوي داء الحياة بعمل الحياة، ونهرب من الحياة لنجدنا والحياة وجهاً لوجه

***

وانا صورةٌ من ملايين الصور الحيوية نهضت أتفهمُ الحياة كما نهض جميع اولئك المساكين. وكما وقفتُ قديماً على طريق طيبة تلقي الاسئلة على العابرين وقفت اسأل ابناء السبيل عن معنى الحياة. فقال احدهم « هي صدر الام »

فالتصقتُ بصدر امي فاذا انا منهُ في عش دفء وحرارة وحصن منعة وامان، لا ترعبني الرياح العاصفة، والرعود الداوية، والبروق الملتاعة والسيول المتدفقة. ومر يوم، فضاق بي صدر امي وعدت الى موقفي اسأل « ما هي الحياة »

فاجاب مجيب « هي الدين والتقوى »

فبادرت أمرّغ جبهتي على عتبة المذبح مخفية اداة التقشف والاماتة تحت مركض الاثواب، واقرع صدري مستغفرة عن اثام لم ارتكبها وذنوب لم تخطر على بالي. فناجتني الصور الصامتة في أطرها وهمست لي الصلبان بنكال الحربة والمسامير. فرّ يومٌ، وصدر الهيكل الذي كان ليّناً عطوفاً انقلب كالمرمر صلابة وبرودة. وصارت الطقوس الدينية ترتيباً مرسحيًّا. وارواح البخور التي كانت تنزل عليّ

فيض الوحي والالهام غدت مزمجة كمطور تنشرها ذوات الذوق الكثيف. فمدت الى مكاني من السبيل سائلة « ما هي الحياة ؟ »

فقال صوت الغرور « وهل هي للفتاة غير التيه والدلال والتظرُّف ؟ »

فغضضتُ أساجل مرآتي فتمثّلتُ صورتي فيها . ولم اكن افارق تلك الصورة الاَّ لأبحث عمَّا يزينها ويجمّلها . وكان يكفيني مشهد الباكين . فاصبحت وقد تذوّقت لذة اللهو واللعب في نسل خيوط القلوب . ومر يوم ، فأطلَّ شبح الملل في عيني . فمدتُ اسأل ابناء السبيل « ما هي الحياة »

فملا صوت الحضارة في صفير البخار وجلبة الآلات وقال «هي الثروة والجاه العالي وابّهة العمران »

فمدتُ في سبيل هذه ، سوى اني لم اصرف ساعة حتى تحجّر كياني. فمدتُ واليأس يسحقني اسأل « ما هي الحياة »

سألتُ طويلاً وبكيتُ غزيراً وقنطتُ حتى طلبتُ الموت فانبثقتْ صورةٌ من غور عنائي . لم تتكلّم وانما فهمت ان الحياة عندها . أرأيت يا أبا الهول ، النجوم راقصة ؟ بلحظة تأمل ثابت النواميس فرقصتْ جميع النجوم حولي ، وخشعت الكائنات سجوداً لدى من هو شفيعها عند ذي الجبروت ، وتناقلت الموجودات صورة وجه واحد ، او نقرت بنسخ خطّ من خطوطه وانتحال معنى من معانيه . فاستحدثتْ جميع الاشرقة نورها من تألق عينين الفتين ، وصارت زرقة الجو وبهجة الربيع وطلاوة الامواج انعكاساً مبهماً ضئيلاً لتلك البسمة — البسمة البليغة الرقيقة النادرة . واستدعتني الالوهية الى عرشها فوضعت يدي ويد الباري على لولب الوجود وقتُ واياهُ بادارة حركة الاكوان . فرَّ يوم ، فتممت ثورة النجوم وقدّمتْ خضوعها للنظام الاوحد ، وعادت لكل كائن اهميتهُ في الخليقة . فرجعت اسأل العابرين « ما هي الحياة ؟ »

فقال صوت العلم الرزين « انا الحياة لاني اشرح الحياة »

فالقيت بنفسي في الخضم الزاخر اعالج العلم المادي تارة والفلسفة الروحانية اخرى من علم خلقنا ، ايها المليك ، لنبحث عمَّا لا يعلم ، وكم من لغة ابدعنا لنشرح ما لا يشرح ! فهداني الجهابذة الى القوة التي يتمُّ بها التفاعل الكوني بين الاجرام العاقلة وغير العاقلة فلا تتفلت من عنانها شمس ولا ذرة: الجاذبية. فسألتُ

وما هي هذه الجاذبية ؟ من رآها ؟ من سمعها ؟ من لمسها ؟ اهي وسيط ينتقل على تموّج الاثير ، ام هي سيّال يتموج بنفسه مستقلا عن العناصر ؟ فاجابوا « ذلك سر الحياة وهو مجهول »

الحياة : مجهول ! لفظتان تمثلان الانفصال والاتحاد جيماً

هذه الرمال التي تفرش ربوعك يطناقس فاغمة ، منذ اربعة آلاف سنة ، يا حارس الصحراء ، منذ اربعة آلاف سنة والعلم يقلّب الذرة الواحدة منها ويديرها ، ويقسمها ، ويجزىء تقسيمها . لقد اوسعها بحثاً ، وفحرها درساً ، وقتلها تشريحاً وتحليلاً متعمّقاً علّة تركيبها واللغز المتواري وراء محلها . فصارت جهودهُ من مجهول الى مجهول ومن استفهام الى استفهام ، وما زال مثلي انا الطفلة الغريرة يسأل « وما هي الحياة ؟ ما هي الحياة ؟ »

وهكذا طال استجوابي للسابلة فضحك كثيرون ومضوا لانهم لم يفهموا ، والقليلون الذين وقفوا واجابوا ارهفوا فيَّ اللجاجة والحرقة والاسى

***

يا وليد بابل ام السحر والتعاويذ ، الى اي حقيقة رمز بك الرامزون ؟ لماذا جعلوا بين كفيك درجات خفية تفضي الى سرداب امتدّ وتاه في مجاهل الاهرام ؟ لماذا اودعوا قلبك مفتاح باب الغيب حيث كان العرافون يستمعون للالهة الهواتف ؟ ولماذا لا يعرف موضع اصغرك الاجوف منك سوى شفتيك المطبقتين على كر الاعقاب ؟

تفتر شفتاك دون كشف واعلان ، اتاكيد هذه البسمة ام ايهام ؟ أإشفاق على دماء المفاداة وقد اذيبت فيها الاوحال ؟ ام لان كل ما هو كائن اقلص من ظلّ حصاة حيال ما سيكون ؟

هذا نيلك رضاب الطبيعة الحي عُبِدَ من منبعهِ الى مصبهِ لما يظهرهُ من ارحية ووفاء ، اتدرك معنى احرارهِ الصيفي ومعنى خصبهِ ؟ اتفهم معنى شكل هندسي تجلّت بهِ اهرامك الخالدة ؟ انت الذي فحتك الكلدان قبل ان يرسموا دائرة البروج ، اتعلم ما اذا كانت هذه الاهرام مقابر للصحراء ام مدافن للغراعنة ، ام حصون دفاع ، ام مستودعات كنوز ، ام مجتمع عشاق ، ام محفلاً يدين فيهِ اوزريس موتاهُ ؟ اتعلم لماذا أدرجت اوراق البردي واسرارها الهيروغليفية في

الاكفان مع المومياء في قلب التوابيت والنواويس ؟ اتعرف معنى سوسن الماء وزهرات عرائس النيل العائمة على النهر المقدس ؟ نحن الجهّال نعلم ان جميع هذه رموز الى الحياة المتحكّمة فينا، وانت ألم يبق لك ما يكتسب ههنا لتحوّل عينيك ونسكت سكوتاً لا ينتهي ؟

ام انت لا ترقب هناك سوى ما ترقب؟ اترصد حركة الاصبع الموجهة الابرة المغنطة نحو الشمال تجر بعدها النظم الشمسية وهيئات الكواكب؟ ام تستعرض مواكب الانوار والظلمات ، وجيوش الثوابت والسيارات ، وجحافل الاسكنية والازمنة ؟ ام انت تتهجا اسم الحياة بخطهُ قلم النواميس بحروف الشموس والمذنّبات والسدم والعوالم ؟ أم يذهلك تدفّق الفيض الالهي من وراء حجب الوجود ليتكوّن اثيراً وهواء وناراً وماء وهيولى ؟

نحن مثلك نترقب ونتوقع ونتوقع ونترقب ، فهل تعلم ما هذا الذي تنتظرهُ وتنتظرهُ الآفاق المنحنية علينا ؟ لقد سُجنّا في حالك الظلمات تخترقها خيوط النور حيناً بعد حين، فنهب نحسبها مقدمة لتحقيق الرجيّة وما هي غير السراب الخداع . فيزيد الظلام حلكاً ونلبث في الانتظار مترددين

لقد دفن نصفك في الرمال المغيرة على علاك وما زلت ترقب الشرق وتبتسم، ونحن تنزونا الكوارث وتفتك بنا الدواهي فنظلّ نترقب ونرجو

اصحيح ان لغزك لغز الدهور ام خلقك الانسان رمزاً له كما خلق آلهتهُ على صورتهِ ومثالهِ ؟ لقد اعطاك من الثور الخاصرتين مكمن الغريزة الجوفية الرامزة الى الكمون ، ومن الاسد براثن التحمس والاستماتة في القتال الرامزة الى الجرأة ، ومن النسر الجناحين المحلقين في بعيد المدى الرامزين الى المعرفة ، ومنهُ — من انسانيتهِ — أعطاك الرأس مشيراً الى التبصر والارادة المدركة المتغلبة على الغريزة والانفعال والخيال . فكيف يحصر فيك جميع هذه النزعات التي تتجاذبهُ ولا يضيف اليها ما بقي؟ لماذا لا يكون ابتسامك الدائم صورة الامل المتجدد ابداً فيهِ ؟ اليس انهُ مثلك لانك مثلهُ ؟ اليس انك في اعماقهِ ايا هول شاخصاً ابداً في السموات العلى كما ظفر بشروق لبث يتوقع بزوغ كوكب جديد وشروق شمس ساطعة ؟

(يتبع)